الدوائر الخمس

قصة بقلم نواف أبو الهيجاء

كلا ؟ ..

واصطبغ الافق بالدم .

كلمات مبحوحة وحشرجة انفاس لاهثة . تضبب كومة كبيرة ثقيلة كرفات خرج لتوه من قبر مزمن . حين عمدوني وانا بعد صغير ، قرأت على سطور الماء كتابا عن دم . احتبست في حنجرتي ، منذ تلك اللحظة ، صرخة صغيرة . مع الأيام تمددت ، تكورت ، ثم تسرطنت ولم اطلقها الا بعد عشرين عاما او اكثر .

شوك العيون النهمة ينغرز في جبيني ، في وجهي .. يحاول اقتلاع حبتي عيني اللتين لم تشاهدا مذ كنت طفلا ، غير شعل النار ، واعمدة الدخان ، وصرخات الاطفال الحبيسة ، ولفافات منفرطة كثيرة .

كلا ! ...

ارتعد خوفا ، تحسب أنني ساكسر الكلمات ، سأفرط عقد الصمت ، اعترف !؟ اعترف امام اسلاك نار ، لم ؟ ..

عدوت في حارات « الشعيبة » (١) . كانت الاسلاك الشائكة دائرة مغلقة تسور المعسكر الهرم . حين حاولنا عبورها انطلقت الكلاب في اثرنا ، مزقت ثيابي المهترئة . « أحسست بالجراح التي خلفتها الاسلاك الشائكة ، وانياب الكلاب ، افواها تتقيأ دما بلون القطران .. و.. احتضنتني يومها أمي ، وكانت ترتعد خوفا ، ثم مضت تبكي حين دخل ابي الغرفة اليتيمة المرصوفة في (الباراكس) (٢) تجهم وجهه،سأل:

ـ ماذا فعل الطفل ؟ ..

قلت وانا اتذوق ملوحة الدموع :

ـ أردت اجتياز الاسلاك الشائكة ..

كاد ينط من جلده ليرتطم رأسه بالسقف التنكي :

ـ كم انت شقي أيها الولد الصغير !..

تقترب من عيني جمرة حمراء متقدة ، وجه شمس جريحة ،تتسلل السخونة ، الى شعري ، تخترق عظامي ، أشعر بقشعريرة يرتعش لها جسدي كله :

ـ اعترف ..

يتعملق في دمي العناد .. أبصق في اعماقي ، على شيء كريه لزج .. الدمل يتفجر خلال لحظات ، احملق في وجهه ، وابتسم .. يبتلع صفعتي بخشونة الجزارين :

ـ أنت بطل أذن ؟ ..

ارتعد خوفا ، تحسب أنني سأعترف لك بمجرد رؤية قضيب الفولاذ ، المصهور . تنطلق الصرخة تجرح حنجرتي :

كلا ...

البرميل تحت قدمي يتدحرج . الوادي في « الشعيبة » مملوء بالرمال المحترقة .أسير فوق الجمر ، كان (قدري)، زميلي الصغير يلعب وحيدا في الوادي حين انضممت اليه . شاهدنا شيئا حيا يجري على امتداد متر او اكثر . حملت صخرة صغيرة ، وحمل هو الاخر صخرة صغيرة ، وضع صخرته على رأس « السحلية » ووضعت صخرتي على ذيل « السحلية » . وقف على الصخرة ووقفت على الصخرة. الرمال تتحرك تحت اقدامنا . كنا نضحك ، كنا نلعب ، فجأة ،هزنا المرعب من صرخة

ـ ماذا تفعلان أيها الشيطانان ؟

وفكرنا بالذنب الذي لا تمسحه الا « الفلقة » ..

ـ نلعب ياعم ...

ـ تلعبان بالافعى السامة ... ؟ ابتعدا فورا ... ستقتلكما !

وضحكنا .. الجسد العملاق يتقدم برويه وحذر .. وانقلبت ضحكاتنا الى نشيج يطلب الصفح .. حين تقدم العملاق من الافعى حذرا ، ورفع الصخرة عن الذيل أولا ، كان الجسد الحي لا يتحرك. مد اصبعه وحركه ، لم يتحرك .. تطلع الينا بعينين ملؤهما الاعجاب. هرع نحونا .. احتضننا شعرنا بطمأنينة .

ـ خلصتما « الشعيبة » من هذه الافعى السامة ..

ارتعدت فرائصنا فرقا ، حين سمعنا بعد ايام ان هذه الافعى الصغيرة لدغت امرأة وقتلتها في الحال ، وعضت رجلا من ساقه مات بعد يومين ، ولسعت طفلا فارق الحياة في مستشفى « البصرة » .

حين قررنا العودة الى الوادي بعد انقطاع طويل ، حملنا من جديد سكينين صغيرتين صنعهما لنا الاسكافي عبدالله ..

غرسنا سكينينا في الرمال هنا ، هناك . كانت الشمس تنعكس في النصلين فتبهر عيوننا ، لعبنا ... ضحكنا حتى كاد يغمى علينا ، وحين استل قدري سكينه زادنا رعب حقيقي ، الدم يقطر منها . وخشيت ان اسحب سكيني يومها ، فظلت في قلب الرمال مغروسة .

ـ سأنتزع قلبك من صدرك ..

اضحك في سري ، رغم حلقات الخوف الخمس المحيطة بي ، هل بقي شيء من دمي في ذلك القلب العنيد ..؟

ينقلب في داخلي شيء كان هادئا ، وتندلق مادته المبهمة على ارضية صلبة ناعمة . تمتد السنة نارية قرب عيني ، ثم بينهما ، ثم يمينا، ثم الى الجبين .. أشم رائحة شواء أشعر معها باحتراق رموش عيني ، ثم .. احتراق شيء ما في الداخل . غثيان هو ـ صرخات في البعيد ، في الغرفة ، بل في الشارع .. على السطوح .. حريق

ـ حريق ، حريق ، حريق ...

« توراة » (٣) بغداد التي يقطنها المئات منا ، قريبة من بيتنا في « الشورجة » يأكلها الحريق ، كنا فوق السطح . تموز في منتصفه ، بغداد تحترق منذ بضعة ايام . شبت النيران في تموز تضيء ليل بغداد .. خزانات البترول تحترق ، و« التوراة » تحترق . الصرخات تنطلق عبر سماء المدينة . يموت في الصور المرئية لون ، ولون ، ولون . تبقى الصور سوداء وبيضاء رغم تدفق طوفان النيران . في

(١) معسكر اخلاء الانكليز قرب البصرة

(٢) عشر او خمس عشرة غرفة صغيرة في صف واحد ، ربما هي مهاجع جنود صغيرة

(٣) استخدمت « التوراة » ـ كنائس اليهود ـ في بغداد لتكون تجمعا سكانيا للفلسطينيين اللاجئين اليها عام ١٩٤٨ ، وبعد عشر سنوات اي عام ١٩٥٨ شبت النيران في « توراة » منطقة سوق الشورجة».

الليالي غاب القمر وتأججت الشعل الوهاجة شرقي المدينة . رائحة شواء اللحوم الآدمية ، والجدران ، والورق ، والملابس .. تعبق في سماء بغداد لسنوات ثلاث او اكثر ، وتموز يجر كل قدرة على الحركة ، ويسحبها الى الاغوار . كنت على السطح أتذوق طعم السلق، واشم روائح الشواء ، التهم النيران من جزع و ...

ـ آه ...

وبين عيني ينفرز القضيب الدبوري ، تتراءى لي في القرب صور منعشة حمراء ، سوداء ، تتوالى الالوان ، تتوالى كأنها المطر ..

ـ كلا ؟ ..

وهزني قصف الرعود :

ـ ماما ...

ـ لا تخش شيئا ياولدي ...

ـ أين بابا ؟..

ـ أبوك في حيفا والميناء يحترق رغم المطر : ياويلتي ..

ـ أنت خائفة ياماما ؟..

ـ أبوك في حيفا والنار تلتهمها .. أخشى أن ـ ياالهي ..

وأصرخ في عيني يرقد الفزع ، أمامي ينتصب التحدي ، في عيني أعمدة سوداء ، حمراء ، الجدران تقترب .. تقترب ببطء كالعذاب من صدري ، تدنو مني .. من وجهي .. أنها تطبق فوقي ، السقف يهبط مسرعا ينيخ على صدري . أكاد اصرخ .. أريد ان أجري ،لا أستطيع .. أصرخ ، تتكور الصرخة في صدري ، بصقة كبيرة . شل اللسان لا يستطيع قذفها في وجه القضيب الدموي المحرق .. ترتخي في كل رغبة حراك ، أحاول أن انطق . كلا ؟..

أشعر بخدر مفاجيء ، ربما كنت صرخت ، ربما شممت روائح لحومي المشوية .. خدر مفاجيء ، ضباب ، ظلام .. خدر لذيذ مؤلم، ظلام ...

احتواني الظلام ، لم اعد صغيرا . . بغداد كبرت حتى ملأت علي دنياي . امتدت حتى وصلت « الشام » ..

يد كبيرة فظة حملتني . صراخ اسمعه يصم الآذان ، القتني بعيدا عن بغداد ، صحوت في « الفوطتين » اشجار وارفة ، خضرة حية، ولم تزل روائح الشواء في انفي ، تداهم خياشيمي ..

تملأ السماء ، تصبغ الافق بلون النار .

رأيت في المنام اني ابكي على صدر أمي وهي تنتحب بصمت .. احتضن الجسد المتخشب في رجل اسمر هو أبي .. رأيت شقيقي الصغير يعدو نحوي صارخا :

ـ أخي ، أخي ...

وشعرت بموت بطيء يزحف باتجاهي ، يعذبني .

حينما افتح عيني اسمع صوت جنيني البكر الذي كبر يهتف :

ـ ماما ، قعد بابا ...

تغمرني نظرة ماما حنانا ، تقول :

ـ الساعة صارت سبعا ونصف ، لم يعد ثمة وقت ،الفطور جاهز !

ـ واقفز ...

أقفز من فوق صخرة مسننةسوداء ، احمل في يدي بندقية ،التراب الصخري الاحمر تحتي يعدو .

أحلم بما قاله والدي :

ـ في « عين حوض » (٤) ايام ستة وثلاثين كنا نحرس بالعصي وبالحجارة وبالبلطات والسكاكين . ذات ليلة غاب فيها القمر ، ونحن في قمة الكرمل نحرس الدار ، سمعنا صوتا .. دبيبا ، حركة ما .. همس زميلي : هؤلاء هم اليهود .. انهم يتحركون لاحتلال القرية ، قلت :ربما هم الانجليز : قال : وهل ثمة فرق ؟ .. كان ثمة مجموعة من الصخور الكبيرة امامنا .. دفعنا الصخور ، سمعناها تتدحرج ، ترتطم باشياء صلبة ... وجأر في السكون صوت ، ثم كان السكون من جديد . لم نجرؤ على الخروج من مخبئنا . في الصباح : اكتشفنا جثة حمارتائه. ربما هو من « أجزم » (٥) ، او ربما كان جائعا . ومع ذلك ظللنا نحرس القرية فترة طويلة بالعصي وبالحجارة ، بالبلطات والسكاكين. بعد فترة باع قسم منا ماشيته واشترينا ثلاث بنادق كندية طويلة ، بنادق جميلة ...

البندقية في يدي ، واقفز من فوق صخرة ـ رشاشة آلية ـ اسمع زعقة زميلي :

ـ انبطح ارضا ياستاذ ..

الثم رائحة التراب ، احلم بالطفل يتساءل :

ـ ماما ، أين بابا ؟..

اقرأ في عينيها الالم والعتاب :

ـ سافر .

ـ هل سيجلب لنا حلوى وبسكويت ..؟

ـ أجل ياحبيبي

ويتقدم الاطفال الثلاثة الاخرون ، ثم يهزجون للحلوى ،ويقفزون..

واقفز من فوق صخرة مسننة أخرى .. أنتصب واقفا :

ـ انبطح أرضا ياستاذ ... هنا تدريب عسكري وليس قاعة درس او مكتب وظيفة !! اضغط على الزناد ، اطلق النار على شارة بعيدة .

أسمع هتاف فرح :

ـ عظيم .. أصبت الهدف اصابة مباشرة .

الليل يسامرنا ، ونحن مجموعة من الصمت الصاخب المتحفز ، مجموعة من الرهبة ، همس زميل :

ـ الهدف واضح ، اياك ان تخطئه . نحن في وسط الاعداء ..

أرى الزوجة النائمة تتقلب . ربما هي تحلم بزوجها الشاب . يصحو الطفل :

ـ ماما ، أريد أن اشرب .

تنهض متكاسلة تسقيه ماء ، ينهض زميلي :

ـ اقترب الهدف كثيرا ..

اسدد جيدا ..

تندفع في غفلة اشرطة النار ، ترتفع في السماء ولولة وصرخات . يتمزق ستار الليل الساكن ، ترتدي القلوب المخاوف كحركة المطاط . أسدد جيدا .. أشباح كبيرة سوداء تقذف النار .. تقترب. الاشباح توزع الموت في القرب ، في البعد .. في الداخل وفي الخارج .. تنطلق من يدي نيران ، يشتعل الهدوء ضجيجا ، احبس انفاسي ، انهال على الاشباح ضربا .. احس بعدها بأسلاك نارية تحطم عظامي،واصرخ:

ـ انسحبوا ..

ـ كلا ..

وانا ارتعد خوفا منجديد،أخافالا اراك ياطفليفي البعيد .. أنا

(٤) قرية ـ قضاء حيفا ـ في الكرمل

(٥) « « « « «

منشورات دار الاداب

تطلب في

الدار البيضاء (المغرب)

من

مكتبة دار العلم

للنشر والتوزيع

٤٠ شارع الملكي ـ الاحباس

تلفون ٦٢٣٠٩

في القرب من « الكرمل » ، وأنت هناك تسأل « الماما » :

ـ أين بابا

ـ سافر .

ـ هل سيجلب لنا حلوى وبسكويت ..

ـ اجل ياابني .

يدنو مني شبح الدم والنار .. القضيب الاحمر ثانية :

ـ لا تصنع من نفسك بطلا .

تخرج البصقة من مكانها وتترك الفراغ :

ـ انا خائف !

فرقعت في سماء الغرفة السوداء ضحكة :

ـ خائف يابطل ؟ اذن اعترف وسنضمن لك محاكمة عادلة .

ـ خائف ان اموت !

يبتعد القضيب الطويل عني للمرة الاولى، تندفع اوراق بيضاء امامي ، ويمتد قلم ..

ـ اكتب ؟

أمسك بالقلم في جبيني ، أحس النار ، شواء ، روائح الشواء تملأ المكان . انا محاط باسلاك شائكة من رجال وبنادق وقضبان حديدية .. من اوراق واقلام .

ـ اكتب يامخرب ...

ـ ماذا اكتب !؟

ـ الست خائفا ؟

ـ ارتعد خوفا

تكركر في الغرفة ضحكة عربيدة ، تتبعها سلسلة قهقهات :

ـ انظروا الى البطل ، لطخة قضيب واحدة وبدأ يعترف ، هيا ...

فوهة سوداء لماعة تقترب من جبيني ، اسمع صوتا ، هل تريدون اغتيالي ؟ لماذا ؟ ... من انتم حتى تقتلوا في رغبة الحياة ؟..

ـ حسنا جدا .. ساكتب ، ابتعدوا عني قليلا :

يرقص من حولي طوق ، وطوق ، وطوق ، ترتطم عيناي بالقضيب الاحمر المشهور في السماء .

اعمدة دخان سوداء ، وماسورة تفغر فاها قبالتي ، لاكتب .. القلم يرتعش بين اصابعي : كم أنا خائف .. لماذا ؟ لماذا أيها الخبيث الكامن في الداخل ؟

« الى زوجتي الحبيبة .

الى اطفالي الاربعة :

يحاولون انتزاع حياتي من جسدي وأنا خائف . اخاف ان أحرم من اللقاء في الكرمل . أخاف اذ أحلم بكم في « عين حوض » تذكرون الاب المسافر أيها .... »

هل تنقر العيون المتقدة يدي .. لاكمل ؟ .. ماذا اكتب ؟

أيها الاطفال ، لا تعتبروني مسافرا . أنتم مسافرون الان . حين تزورونني بعد أيام أو اسابيع ، او سنوات .. »

سنوات .. كلمة أمقتها .. اشطبها ..

« او شهور ، احملوا معكم الحلوى والبسكويت ، وقولوا : من هنا جاء أبي ، والى هنا عاد ابي » و ... تمتد فوهة سوداء الى جبيني:

ـ خائف ..

ـ اجل .

ـ اعترف .

ـ كلا ..

اسمع الدوي : اسمع الدوي من جديد .. ترتخي قبضتي ، يسقط القلم ، أشعر بخدر مفاجيء من جديد ، اقرأ في نقطة حمراء طفرت فوق الورقة :

ـ كلا ..

دمشق ـ

نواف ابو الهيجاء

دار الآداب تقدم

قصة المقاومة الفيتنامية

كما يرويها ابطالها

يعتبر نضال الشعب الفيتنامي لتحرير ارضه من اطول ما عرف التاريخ الحديث من مقاومة وصمود.

وهذا الكتاب الهام الذي نقدمه للقراء العرب ، في هذه الفترة التي تحتشد فيها الطاقات العربية كلها لمقاومة العدوان الصهيوني وتحرير الارض العربية في فلسطين ، يحمل مثالا وعبرة وفائدة عظيمة ، لا سيما وان مؤلفيه هم انفسهم من ابطال المقاومة الفيتنامية على رأسهم الجنرال فو نيغوين جياب قائد المقاومة الفيتنامية سابقا ووزير الدفاع في فيتنام حاليا . والمؤلفون يروون باسلوب شيق طريف ذكريات اعمالهم السياسية والحربية في سايغون وهانوي واعوام الاسر والسجن والتعذيب ، والاحتلال الياباني وقيام حروب العصابات في حقول الارز والغابات الكثيفة ، حتى تعبئة الشعب كله في ربيع عام ١٩٤٥ وانشاء جمهورية فيتنام الديمقراطية في هانوي .

وخلال هذه القصة يبرز وجه مدهش عجيب : هو وجه ذلك المناضل الشاب ، والمثقف الانساني ، والثائر الذي لا يلين : « العم هو » الذي سيصبح فيما بعد الرئيس هو شي منه ...

والفصل الاخير في الكتاب يتحدث عن المقاومة البطولية الرائعة التي ما يزال شعب الفيتنام يخوضها بقيادة جبهة التحرير الوطنية حتى ايامنا هذه ضد الاحتلال الاميركي وعملائه في فيتنام الجنوبية .

الثمن ٣٠٠ ق. ل

صدر حديثا